دكتور بهاء الأمير

أبو خربان



٢٠٢٠م

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك: قال الحكماء يا مولاي إن المُلك حقيقة ومخبر، وليس بالزينة والمظهر.

قال الملك: وما حقيقة المُلك؟

قال الفيلسوف: حقيقة المُلك يا مولاي أنه محبة وهيبة، والمحبة لا تكون إلا بقوامة على الناس ورعاية، وعدل بينهم وإنصاف وكفاية، والهيبة حزم وشكيمة على ظالمهم، وقوة وبأس في مواجهة أعدائهم.

وقال الحكماء يا مولاي، إن المَلك إذا ظن أن المُلك بزينته ومظهره، لا بحقيقته ومخبره، انحل مُلكه، وانفرط عقده، وأصبح اسماً بلا مسمى، وغلافاً بلا فحوى، ثم ينتهي أمره إلى أن يصير إلى ما صار إليه أبو خربان.

قال الملك: وما فعل أبو خربان؟

قال الفيلسوف: قالوا يا مولاي إنه كانت مدينة عظيمة يحكمها سلاطين عظام، يحبهم أهلها، ويهابهم أعداؤها،

فإذا ما ارتدى أحدهم لباس الحرب وركب فرسه، تبعه أهل المدينة كلهم، فتتزلزل عروش أعدائهم.

ولم تزل المدينة قوية عزيزة، حتى كان عهد آخر سلاطينها، ومرض هذا السلطان ولم يكن له عَقِب، فركب أهلَ المدينة الهمُ والخوف على سلطانهم، وعلى هيبة مدينتهم، وقد تجرأ عليها أعداؤها حتى صاروا يغيرون عليها.

وكان بقصر السلطان حارس للكلاب، يُكنى بأبي خربان، رأى أبو خربان السلطان مريضاً، والناسَ محزونين، فقال لنفسه: ما السلطان إلا رجل وأنا رجل، وما يفعل السلطان عند الحرب سوى أنه يلبس لباس الحرب، ويفعل أهل المدينة الباقي.

ثم إن أبا خربان لبس لباس الحرب، واكثر من النحاس اللامع على صدره وفوق كتفيه، ووضع خنجراً

كبيراً في خاصرته، ثم صار يمشي بين الناس ويقول لهم: لا تجزعوا من مرض سلطانكم، فأنا مكانه، وسوف أعيد لكم مجدكم وعز مدينتكم.

والناس من همهم يداعبونه، فقائل: أعز الله مولانا، وآخر: وسع الله ملكك، فإذا سألهم سائل قالوا: هذا أبو خربان، مجنون من مجانيننا، يسري عنا حتى يعافي الله مولانا.

وطال هذا الحال بأبي خربان، فصار يغضب ممن لا يناديه بما يليق بجلال سلطانه.

وصحا أبو خربان يوماً فإذا الناس منصرفون عنه، ويهنئون أنفسهم بعودة مُلكهم وعزة مدينتهم، وقد وصلتهم أنباء أن السلطان المريض قد وُلد له وَلد، وصار له عقب.

وصار أبو خربان يمشي في الطرقات فلا يلتفت إليه أحد، فصخب وثار قائلاً: يا جاحدي المعروف، أُعدكم للنصر وتخذلونني، وهل كان يمنع استيلاء أعدائكم على مدينتكم إلا علمهم بوجودي؟ فما جزاؤكم إلا من جنس عملكم.

ثم إن با خربان تسلل ليلاً، وذهب إلى أعداء مدينته، فقابل حاكمهم، وقال له: جئتكم بخرابكم، وُلد لسلطاننا وليد من نسل الفرسان الذين أذلوا آباءكم، فإذا تركتموه حتى يشب كان في سيفه هلاككم.

فقال له حاكم الأعداء: قد نصحتنا يا ابن عمنا، وقد علمنا بسلطنتك على المدينة، وغدر أهلها بك، وإنك إن أعنتنا نصرناك على أهل مدينتك الجاحدين، حتى يصير لك السلطان، فلا يدخل المدينة داخل إلا بإذنك، ولا يخرج منها خارج إلا بإذنك.

فسُر أبو خربان سروراً عظيماً، وفرك يديه في حبور، وهو يهمس لنفسه: صرتَ ملكاً يا أبا خربان ومن نسلك الملوك!

وعاد أبو خربان إلى مدينته، وفي ليلة ظلماء شاتية، فتح بابها لأعدائها، فتسللوا إليها، وفزع أهلها، واضطرب حالهم، وفر بعضهم بسلطانهم المريض ووليده السلطان المنتظر إلى الصحراء، وأقاموا على أطرافها.

ولما هدأت المدينة، قال أبو خربان لحكامها الجدد: قد أنجزت مهمتي، وجاء أوان إنفاذ وعدكم.

فقالوا له: حباً وكرامة يا أبا خربان، وإنا لَنفي بما نعِد، ثم جاءوا به إلى باب المدينة، وقالوا له: ها هنا مقامك وإنفاذ وعدنا، فلا يخرج خارج إلا بإذنك، ولا يدخل داخل إلا بإذنك.

فقال لهم أبو خربان: إنما هذا مكان البواب وحارس الباب.

قالوا له: يا أبا خربان، إنا كنا نحسبك ذا عقل وفهم، هذا مقام البواب عند قومك الحمقى، الذين يجعلون السلطان في آخر المدينة، أما عندنا فمقام السلطان في أول المدينة.

فجز أبو خربان على أسنانه، وهو يقول: لا بأس.

وبعد حين أراد أبو خربان أن يمارس مهام منصبه، فمنع واحداً من أهلها الجدد من الخروج، فجاءوه صائحين: يا أبا أخربان، إنما جعلناك سلطاناً على باب المدينة ثقة بعدلك، فلا تكن جائراً على من كان منا، أدام الله مُلكك، ولك ما شئت على من بقي في المدينة من أهلها القدامى.

وبعد زمان مضى، صار المقيمون في الصحراء يغيرون على مدينتهم، ويتسلل بعضهم من الباب، فيثير فزع أهلها الجدد، فقالوا لأبي خربان: أعز الله مولانا، إنه لا يثبت السلطان إلا الحزم، ولا يقيم دعائمه إلا العزم، فأدام الله سلطانك، لا تجعل أحداً من أهل المدينة القدامى يدخلها فيزعزع سلطانك فيها، وإذا أراد أحد من الباقين منهم الخروج فأمرك يا مولانا.

ثم إن أبا خربان ملَّ جِلسته، فذهب إلى من سلطنه وقال له: قد سئمت السلطنة، وأريد منصباً أقل من هذا درجة، فقال له: يا فضيحتنا، إنها ما خلقت إلا لك، وما خلقت إلا لها، ولا نرضى لك بأقل منها.

وطال الزمان بأبي خربان جالساً على باب المدينة، فإذا أراد تركه قال له من بداخلها: سلطانك يا مولانا!

وإذا أراد الخروج منه سبه قاطنوا الصحراء وبصقوا عليه وقالوا له: يا بواب، يا حارس الكلاب!

وأراد أبو خربان يوماً أن يوسع ملكه ويمد عرشه، فبنى كُشكين على جانبي باب المدينة، وحفر بجوار كل كُشك بركة، وصار يضع فيها كل يوم دلواً من الماء المتصرف، ثم أتى بلافتة ضخمة ووضعها على باب المدينة أعلى الكشكين، وكتب عليها بخط عريض:

جلالة السلطان المعظم أبو خربان، سلطان الكُشكين وحامي حمى البركتين.

دكتور بهاء الأمير

المحرم ١٤٤٢هـ/سبتمبر ٢٠٢٠م